

فلسفة التربية

كما برأها فمؤسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٧ —

—>>><<<—

« إذا أسك الله تعالى بالحق في يمينه ، وبالذم الدائم إليه في يساره ، ثم أمرني بالاختيار : لسقطت على يده اليسرى ونلت اعطى هذا أيها الأب الأقدس ، لأن الحق الخالص ليس إلا لك »

ليسغ Lessing

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذي يصرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحى إليه الفنون من سمو في الشعور وتدوق للجمال »

أحمد أمين

المنهج والطريقة

رأيت في المقال السابق كيف تمتد يد « الديمقراطية » إلى « المعلم » و « المدرسة » و « الطالب » لتصلح من شأن التربية ما قد أفسدته النظم البالية والتقاليد الرثة ، وسترى اليوم ما ينبغي أن يكون عليه المنهج وطريقة تدريسه حتى لا يكون الأمر مجرد « إنهاك عصبي » لا أكثر ولا أقل ..!

يقسم الأستاذ « هورن »^(١) العلوم إلى خمس طوائف : فنية ، وتشمل : العارة والحفر والتصوير والموسيقى والأدب والدين ؛ وإرادية وتشمل : النظم والأخلاق والقوانين ؛ وعلمية عقلية وتشمل : المنطق واليتافيزيقا والجمال واللغة والأخلاق النظرية ؛ وعلمية مادية غير عضوية وتشمل : الطبيعة والجيولوجيا والجغرافيا والفسولوجيا والفلك والمعادن والكيمياء ؛ وعلمية مادية عضوية وتشمل : الحياة والنبات والحيوان والفسولوجيا والتشريح وتاريخ الإنسان والاجتماع والاقتصاد

وأنت ترى أن كلام من هذه العلوم يعالج إحدى نواحي الكون معالجة خاصة ، وأنها جميعاً ذات قيمة « ذاتية » كما يقول « هربارت » وليكننا في ناحية « الثقافة العامة » على الخصوص مضطرون إلى التفريق بينها في الدرجة والضرورة فلا نفضل منها إلا ما يتفق

(١) انظر كتابه Horn Aphilos, of Education

وغايتها . ومن هنا كان ذلك الخلاف الهائل في آراء علماء التربية وأساليبهم ؛ « هربارت » يطلب بقيمة المادة « الذاتية » بصرف النظر عن نتائجها وآثارها ، و « ديوى » يصر على اختيار المواد « النفسية » وفقاً لمذهبه العملي ، و « ريدجر Ruediger » الغائل بفكرة اللامعة مع البيئة^(١) بعطينا قِيماً آتية وأخرى ثقافية . فالأولى منها التحضيرى كمواد القراءة والكتابة ، ومنها العملي كمواد اللعب ، ومنها « الاجتماعي » كمواد الأجناس والأديان^(٢) والأخلاق والتاريخ والأدب ، ومنها « التقليدي » كالخطابة والجدل ؛ أم الثانية — الثقافية — وهي أرقى القيم جميعاً ، فتدخل فيها المواد التي تحرر العقل وتهذب العواطف وترقى بالشعور ، كالفلسفة الخالصة والأدب المجرد

هذا وقد رتب الفيلسوف « سبنسر » المواد تبعاً لأهميتها وضرورتها فجعل علوم « الصحة » على رأسها ، وتليها علوم « التربية » ثم علوم « السياسة والاجتماع » ثم علوم « الفراغ » أي « الفنون » ...!

أما « رسل » فقد فضل المواد التي « تُبقي وتمحفظ قوة الخلق والتضلع والحيوية في الفرد ، وتعينه على التمتع بالحياة ذاتها وأما الأستاذ « أمير بقطر » فيقول بانتخاب المواد التي تفتح على الطالب أكثر من باب واحد^(٣)

ولقد أدلى الأستاذ « أحمد أمين » برأيه في الموضوع فقال^(٤) « إذا كانت قيمة الثقافة الذاتية هي أبداً في مقدار ما ترفعه في المثقف من وجهة النظر إلى الأشياء وتقويمها قياً جديدة أقرب إلى الصحة ، أسلدنا ذلك إلى نتائج خطيرة ، فدين خير من دين بمقدار ما يحاول تماثيله من رفع مستوى النظر إلى الله وإلى الحياة ، وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدي إليه من نظر راق صحيح . وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحى إليه الفنون من سمو في الشعور وتدوق للجمال

(١) ويكون ذلك بالتقدير المترايد للبيئة مع الانسجام والقيادة والقدرة على الانتفاع بقوى الفرد وجعلها نامية فعالة منتجة

(٢) ولنا نوافق الأستاذ « ريدجر » في جعله قيمة الدين آتية حسب

(٣) لا أذكر مع الأسف عدد « مجلة التربية الحديثة » الذي جاء به هذا الوأى

(٤) أنظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال « قيمة الثقافة »

الدراسة شائقة وينفس عن الفرائز، وفلسفة خلقية وميتافيزيكية واجتماعية توطد من مركز الناشئ في المجتمع والكون وقهمه علاقة الأرض بالسما .. ١

أما الطريقة فلا تكاد تقل خطورة عن المادة، بل إن المستحدثات في التربية لتنصب عليها بوجه خاص، ذلك أن دراسة علم النفس للطفل وقواه قد كشفت عن أصول أساسية يبني أن يتبعها «المعلم» في تدريسه، ومن هذه الأصول ألا تكون الطريقة «قياسية» إلا في آخر مراحل التدريب؛ أعني أنها يجب أن تكون استقرائية قائمة على المشاهدة بحيث تجعل الطفل في حالة «اختيار» حقيقية يرغب فيها لأنها، وتنبه فكره إلى المسائل التي يعالجها، وتتيح له القدرة على تدبير هذه المسائل بمعرفته وملاحظته، وتجعله مسئولاً عن حل الحلول التي تعرض له بطريقة منظمة، وتمطيه أخيراً الفرصة التي يختبر بها صحة فروضه ويتأكد من صحتها

هذا إلى وجوب تفهم الطفل قيمة ما يدرس ومدى نفعه في الحياة العملية والمعنوية ليزداد جهده فيه وإقباله عليه، وليكون قلبه معه دائماً في عمله، وإلى وجوب وقوف المدرس بين يدي (١) فلا يترك الطفل يمضي إلى إشباع ميوله دون رقابة، ولا يعلى عليه ما يريد إملأه قسراً، بل يتبين ما يتحفظ فيه من غرائز وميول ويقدم له ما يساعده على ما يريد

ولما كانت الطريقة هي ترتيب المادة بحيث تكون أكثر فاعلية في الاستعمال فإنها لا تكاد تخالف المادة قط. أليس من «ياكل» يتناول طعاماً هو «الأكل» نفسه؟ (٢) وقد نجح من فضل الطريقة عن المادة قلة فرص التجارب أمام الطفل، وسوء فهم النظام والشوق، والمنايا المقينة بالحفظ وحده، وجعل عملية التعليم ميكانيكية عديمة الروح، فأدى الأمر إلى «تخشب آلي» بسبب الفصل بين العقل وبين النشاط الذي له من خلفه غرض يدفعه (٣)

أفرايت هذا كله؟ أفلا حظت ما فيه من قوة ونفع وسمو؟ إنهم هكذا يفكرون في أسربكا وكذلك يطبقون (٤) ...

(يتبع) محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

وأنت ترى متى أن تلك النظرة من الأستاذ حصيفة كل الحصافة وبعيدة النور وسامية المنطق، وأن نظرة «ديوى» مشوبة بالنفع العملي الذي يشوه فلسفته الخاصة، وأن ترتيب «سبنسر» يقلل من شأن تلك النعمة «العقلية والفنية» التي جعلها «هورن» جوهر الثقافة الحقيقية

ومهما يكن من شيء، فما دامت غاية التربية هي خلق الحياة الاجتماعية المثلى. وأعني بها تلك الحياة «التي يستطيع الفرد أن يجد فيها مجالاً لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية والعقلية والروحية والمادية على أم وجه بحيث يثني له أن ينمو ويتقدم أخلاقياً وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع أن تحققه الظروف مع البيئة (١)» أقول ما دامت تلك هي غاية التربية فيجب أن نحاول تطبيق ذلك على مواد المنهج وطريقة تدريسيها «فاللادة» يجب أن تكون نامة الوفاء بما تتطلبه «المرحلة» البدنية والنفسية من نمو، ويجب أن تكون محبوبة للطفل شائقة لديه لا هي بالسهلة ولا هي بالصعبة، ويجب أن تكون مستمدة من الحياة ومرنة تلائم الاختلاف بين عقول الأفراد، ويجب أن تظهر للطفل كأنها مادة الضرورية الخاصة، ويجب أخيراً أن تكون «بحيث ترتفع به إلى مستوى أرق في العمل والشعور لا مجرد إلهاء عصبى» (٢)

وإذا كان الناقد الألماني «ليسنغ» يقول إنه يفضل «الدافع الدائم للحق» ما دام الحق الخالص ليس لغيره سبحانه وتعالى، فإننا يجب أن نتجنب حشو المنهج بالمواد ونكتفي بإثارة حب البحث في الطالب ناظرين دائماً إلى الكيف لا إلى الكم حتى يكون التعلم دائماً ذا عقل خصب لا يهرم بكبر السن، ولا ينوء تحت أقبال معلومات مهوشة، ولا يبنى يبحث ويطلع بعد الدراسة محتفظاً بربيع الحياة

وما دامت دراسة «الطبيعة» ذاتها وسيلة للاحتفاظ بالحياة وللتعة فيها والرفاهية، فلا تمارض إذاً بين الدراسات الطبيعية العلمية والدراسات النفسية الفنية، وإذاً فليكن في المنهج ثقافة عامة توسع الإدراك وتدقق الفهم، وتاريخ وجغرافيا يزيدان في معنى التجارب الإنسانية وثروتها، وعلوم طبيعية تفتح مجالاً للعقل وتؤدي به إلى الصيغ والقوانين الكلية، ولما يجعل

(١) انظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال قيمة الثقافة

(٢) انظر كتاب الأستاذ «ديوى» Democracy and Educ وقد لحصته الآنية المربية لإحسان القومى في رسالة صغيرة

(١) انظر ... A Source Book

(٢) انظر التربية والأخلاق للاستاذ تام (٣) من كلام للاستاذ ديوى

(٤) ومن حسن الحظ أن مصر قد بدأت تأخذ بذلك الاتجاه كما لوحظ في النصوص التجريبية ومعهد فاروق الأول